ثقافة

الياس خوري

ديوان ابراهيم

بصدور الطبعة الجديدة شبه المتكاملة لديوان الشاعر الفلسطيني ابراهيم طوقان ، تتقدم الدراسات النقدية على أرض أكثر صلابة . فالتراث الشعري الذي كان شبه ضائع لعبد الرحيم محمود، صدر مؤخرا في ديوان واحد . والان يصدر اكثر شعر طوقان في ديوان واحد . يبقى شعر عبدالكريم الكرمي (أبو سلمى) بحاجة الى الجمع في كتاب ، حتى تكتمل صورة مرحلة شعرية كاملة ، طبعت بدايات الصوت الشعري الفلسطيني بطابعها في الثلاثينات والاربعينات ولا تزال الى اليوم فاعلة ومحركة ومؤثرة . فالصوت الشعري الفلسطيني ، حمل في هذه المرحلة ، قضية الشعر الى جانب قضية الوطن ، ومزجهما داخل نبرة كلاسيكية وظيفية ، استطاعت ان تحمل المؤشرات الاولى للتطور اللاحق الذي عاشه الشعر الفلسطيني الى اليوم .

أهمية طوقان هي، كما يشير احسان عباس في دراسته القصيرة المنشورة في آخر الديوان ، في كونه « أكبر شاعر أنجبته فلسطين حتى اواخر العقد الرابع من هذا القرن » . وهو ككل شاعر كبير ، حمل داخل قضية الشعر وجهة متماسكة طبعت جميع مراحل انتاجه الشعرية . فروح النكتة والنثرية البليغة ، حين تدخل الشعر ، فانها تطبعه بنكهة خاصة ، سوف تكون مؤشرا لمحاولات طوقان التنويع داخل عمود الشعر الكلاسيكي على بنية القصيدة ، ليفتح فيها ، انطلاقا من النشيد السياسي ، فجوات تقربها من الموشح ، وتفتحها على امكانيات كسر العمود التي تمت لاحقا .

الاساسي في شعر طوقان ، هو هذه القدرة العجيبة على الوصول الى ذروة الاهتمام بالوطن . فالوطن ، يبقى موضوعا للشعر، أي تبقى القصيدة الكلاسيكية عاجزة عن احداث فراغات في داخلها ، تسمح للمكان الفلسطيني بالاقامة فيها . لكنها في المقابل ، حين تنوع على موضوع الوطن ، تحوله الى هاجس من طبيعة سياسية فنية ، وتقوم بتوحيد عناصرها ، داخل التلقي الجماهيري الواسع . هذا التلقي هو موحد عناصر القصيدة المفككة بوصفه فعلا آنيا ومباشرا . تأخذ آنيته معناها من كونه يتحلق حول موضوعات محددة ، حول تفاصيل تعيشها الحياة السياسية الفلسطينية في فترة مقدمات الهزيمة . أما مباشرته ، فهي في قدرته على احداث اثر واضح المعالم ، بشكل مباشر . انه صدى الحركة الوطنية . يحول مشاعرها وافكارها الى ايقاعات تنبع من الذاكرة . فيجري مزج ايقاع الذاكرة ، بآنية الحدث الواقعي ، في معادلة الاثر السياسي المباشر للشعر. تصبح المقدمات الفكاهية، وشعر المجون ثم شعر الحب ، مجرد مقدمات للوصول الى صوت فلسطيني شعري ، له ملامحه الخاصة ، استطاع من خلال هذه الملامح مزج موضوعتي الوطن — الارض ، بالنضال ، داخل سياق قصيدة الموضوع الواحد ، التي تضيء مناطق الحس الشعبي دون ان تصهرها .

« هو بالباب واقف والردى منه خائف
فاهدأي يا عواصف خجلا من جرأته »

حول رمز الشهيد ، بدأ طوقان ، يمزج الوطن، بالفعل المغير . فالشهيد هو الوطن المتحرك الذي يصل الى الموت طلبا للارض . فالحملة التي قادها

---

* ابراهيم طوقان : **ديوان ابراهيم** . دار القدس ، بيروت . شباط ١٩٧٥ .